الصحافة المكتوبة في لبنان:

تحديّات البيئة الاتصاليّة الجديدة ورهان الاستمراريّة

جمال نون*

ملخص

تواجه الصحافة المكتوبة في لبنان (والعالم) تحديّات غير مسبوقة، نتيجة التطوّرات التقنية الهائلة في مجال الإعلام. وتبدو، مع تراجع «ثقافة المطبوع»، في مسارٍ انحداري من حيث الانتشار والتوزيع والتأثير. بل ان هذه التقنية الجديدة، من إعلام رقمي وأنترنت ووسائل تواصل اجتماعي، انتزعت من الصحافة الورقية وظائفها التقليدية المتعدّدة، وهدّدت دورها واستمراريتها.

لكنّ الصحافة في لبنان دخلت في مسار مهني متقدّم يختلف جذريًّا عمّا كان سائدًا في آلية العمل. فقد تحوّلت من الوظيفة الخبرية، الطاغية على صفحاتها، الى التحليل والقراءة الإخبارية والتفسير والمعلومات الجديدة ومنح الحدث أبعادًا جديدة. ولا تغيب الوظيفة المركزية، أي نقل المعرفة الى الأفراد، والتأثير في عمليات الإدراك والوعي والتفاعل لدى المتلقّي في بحثه عن الخلفيات والأبعاد. وهذا ما يجعلها مصدرًا أساسيًا ومهمًّا للمعلومة والفكرة ولصناعة الرأي، لم تتمكن أي وسيلة إعلامية أخرى (تقليدية أو حديثة) من مجاراتها لأسباب بنيويّة وعملية.

وتراهن الصحافة المكتوبة على أن يؤدّي هذا الدور الوظيفي المتقدّم إلى ضمان استمراريتها. إذ هناك إقرار في لبنان بأهمّية هذه الوسيلة الإعلامية وتأثيرها.

الكلمات المفاتيح الصحافة المكتوبة، صناعة الرأي، المتلقي، إعلام، وسائل الإعلام

* أستاذ في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية nounjam@hotmail.com

مقدّمة

للمرّة الأولى في تاريخها العريق والمميّز، تواجه الصحافة المكتوبة في لبنان، كما هو الحال في معظم دول العالم، تحديّات غير مسبوقة، وتقف أمام استحقاق الدور والموقع والوظيفة والاستمرار. إذ إنّ التطوّرات التقنية المتدرّجة في مجال الإعلام، منذ اكتشاف الإذاعة وصولًا إلى الإنترنت والوسائط الحديثة، وبما أوجدته من مصادر إعلامية بديلة تتميّز بالشموليّة والسرعة والتفاعلية، انتزعت تباعًا من الصحافة المكتوبة وظائفها التقليدية المتعدّدة، وجعلتها الطرف الأضعف في منظومة الاتّصال الجماهيري. وفيما يشهد الإعلام الرقمي والقراءات عبر الإنترنت انتشارًا واسعًا ومضطردًا كمصدر للأخبار والمعلومات وغير ذلك من وظائف ومهام متشعّبة، فإنّ الصحافة المكتوبة التي كانت تحظى بلقب «السلطة الرابعة»، لما كانت تتسم به من تأثير كبير، تبدو في مسار انحداري من حيث الانتشار والتوزيع والتأثير، وذلك مع تراجع «ثقافة المطبوع» وارتفاع تكاليف «الصناعة» (المطبعة، الورق، التوزيع...)، بالتزامن مع نضوب الإعلانات كمصدر أساسي في الإيرادات.

وتعدّ ظاهرة اختفاء عناوين كثيرة، من «تقاليد» الصحافة اللبنانية على امتداد تاريخها المميّز، علمًا أنّ هناك دائمًا إصدارات جديدة ومتنوّعة تسِم المشهد. ففي تاريخ لبنان الإعلامي، يمكن رصد مئات العناوين لصحف ومجلّات تركت بصماتها في عالم الصحافة قبل أن تغيب، في دورة حياة وموت، ولأسباب وظروف متعدّدة ومتباينة. كانت عناوين تسقط، وتظهر أخرى بديلة. لكن بدايات الألفية الثالثة شهدت تغييرًا في شروط الحضور والغياب، تمثّل تحديدًا في تداعيات الثورة التقنية وبروز بنية اتصاليّة جديدة، ألقت أثقالها على الإعلام التقليدي من حيث انتشاره وتأثيره وحتى استمراريته.

هذا التغيير المتسارع في مجال الميديا يطال، إذًا، الأسس التي ترتكز إليها الصحافة الورقيّة. إذ كانت تحتكر مهمّة الإعلام، بالمعنى الشامل للكلمة، بما يتضمّنه ذلك من السعي إلى الحصول على أخبار ومعلومات جديدة عن وقائع وأحداث أو سياسات وقضايا تمسّ مصالح الجمهور أو تثير اهتمامه. كما تتولّى رصد الاتجاهات

والأجواء السائدة في المجتمع، والتعبير عن خطاب سياسي وأيديولوجي محدّد، وصنع الرأي العام وتوجيهه، والتعبير عن ثقافة الأمة ونقل تراثها، وغير ذلك من وظائف تتعلّق بالتعليم والترفيه والإعلان والترويج. يحدّد رولان كايرول (Roland Cayrol) وظائف الصحافة بأنها: البحث عن الخبر ونشره، التعبير عن الآراء، وظيفة اقتصادية وتنظيم اجتماعي، ترفيه وتسلية، وظيفة تأهيل نفسي، أداة تماثل وانتماء اجتماعي، ووظيفة أيديولوجية باعتبارها وسيلة لاندماج اجتماعي ولمشروعية سياسية. (كايرول، ١٩٩١، ص ١٤ – ٢٠)

إن التطوّرات التقنية الهائلة، مترافقة مع تحوّلات بنيويّة وثقافيّة وفي القيم والمفاهيم، تحفر عميقًا في آلية عمل المنظومة الاتصالية، ما حفّز قطاع الصحافة المكتوبة على اعتماد مقاربة تختلف جذريًّا عن السائد تقليديًّا في فهم الوظيفة والدور، وإنْ بشروط عمل لم تتبلور معالمها النهائية بعد. فبعد أن كان الخبر طاغيًا على العمل الصحافي، فإنّ عناوين التغيير التي بدأت الصحافة في اعتمادها فعليًّا منذ سنوات، تشمل أساسًا: طبيعة الرسالة الإعلاميّة، وتحديدًا المادة الخبرية والحدثيّة، وكيفيّة مقاربتها، تقديم معالجات جديدة لمعطيات ووقائع أصبحت منتشرة بفضل الإعلام الإلكتروني والاجتماعي، تطوير الأداء المهني. إنّ المقاربات الجديدة تأخذ في الحسبان المتلقّي «النخبوي» وطبيعة اهتماماته، ولا سيّما لجهة الخروج من الحدث المباشر نحو أبعاد هذا الحدث والخلفيّات والتداعيّات.

يذهب أرمان وميشال ماتلار (Mattelart) في مؤلفهما «تاريخ نظريات الاتصال» إلى أنّ «الاتصال من العلوم القليلة التي تتكثّف وتتقاطع فيها مجموعة من العلوم، إذ يُعتبر علمًا / ملتقى للكثير من التخصصات العلمية» (ماتلار، ٢٠٠٥، ص ١٩). لذا، يبدو من الحصافة بمكان أن لا يتمّ الركون إلى معيار أو معايير محدّدة لقراءة واقع المؤسسات الإعلامية (وتحديدًا الصحافة الورقية) أو استشراف مستقبلها. فالصحافة اللبنانية، وإن كانت تعاني صعوبات جدّية، لكن عوامل عدّة تجعلها ضرورة لا غنى عنها، وذلك خارج حسابات التكاليف والربح والخسارة.

وإذا كان المعيار التقني يتقدّم راسخًا في معادلة التواصل، فهناك عوامل عدّة تحفظ للإعلام التقليدي مكانًا ما. إذ إنّ البدائل المتوافرة، والمتمثّلة خصوصًا في الإعلام الرقمي على اختلاف تجلّياته، لم تستطع تشكيل أداة

اتّصالية فاعلة في حقل الفضاء العام. ويذهب عماد بشير إلى أنّه «قد تكون الصحافة العربية أمام معضلة جادّة تشي بخسارة الإعلام العربي للصحف الورقية من دون اكتسابه تقدّمًا واضحًا لناحية ربحه في الصحافة الرقمية» (بشير، ٢٠٢١، ص ١٨٧).

إن معالجة موضوع كهذا يفترض تاليًا، الذهاب إلى أبعد من العوامل التقنية (التكنولوجيا الحديثة) الطاغية في قراءات الباحثين (معظمهم). إذ إنّ «الإعلام هو فاعل من ضمن مجموعة فاعلين، وأنّ العامل التقني هو عامل من جملة عوامل» (القادري، ٢٠١٧، ص ٢٦). فهذا المتغيّر، وإن بدا أساسيًّا في رسم المسار الانحداري للصحافة الورقية، إلّا أنّ عوامل عدّة متداخلة، في النموذج اللبناني، تحدّ من هذا المسار:

– تعقيدات المجتمع اللبناني، والمستوى المتقدّم من التسييس والانقسام (العمودي والأفقي على السواء)، والالتزام بالقضايا العامة، على اختلاف المنابت والأهواء في وطن تتناسل فيه دون توقّف، عناوين خلافات تطال المجتمع بكلّ عناوينه.

– التاريخ الغني للصحافة المكتوبة في لبنان، وما راكمته من حضور ومصداقية ونفَس «نضالي»، فيما الإعلام الحديث لا يزال قاصرًا عن إدراك هذه الصورة، أقلّه لدى النّخب.

– عدم ترسّخ ثقافة التحوّلات التقنية وما تقتضيه من مقوّمات في المفاهيم والخطوات الإجرائية الضرورية (وما تفترضه من وجود أجهزة مناسبة).

– مدى الركون إلى مصدر «موثوق» يرفد الجدل والنقاش وتبادل الآراء ولا سيّما في الميدان السياسي.

– هويّة القائمين على الاتصال، ولا سيّما من رعيل الصحافيين المخضرمين، والذين ينتمون بشكل شبه كلّي إلى المنظومة الإعلامية التقليدية.

وفي خضم هذه المعادلات وتباياناتها، تطرح نهوند القادري تساؤلات عن خطة الإعلام التقليدي للحفاظ على دوره في التوسّط بين المجتمع والدولة، وعن إمكانية عمل الصحافة على تجديد نفسها من خلال البحث عن تشكيل نقاط ارتكاز داخل شبكة الإنترنت عوضًا عن البحث المضني والعبثي عن حصريّة الخبر، وفي ما إذا كان الصحافيون سيتمكّنون من إنتاج تحليل يساعد على إعطاء معنى للظواهر المعقّدة المحيطة بنا (ص ٤١).

١. الإطار المنهجي للدراسة

أ – مشكلة الدراسة وفرضيّاتها

إنّ هاجس الاستمرارية للصحافة المكتوبة في لبنان والحفاظ على موقع فاعل ومؤثّر، يبدو عنوانًا محوريًّا لإشكالية الدراسة ومقتضياتها، أخذًا في الحسبان طبيعة الدور والوظيفة والهويّة. فقد دخلت عملية التواصل الإعلامي منعطفًا مهمًّا منذ انتشار شبكة الإنترنت وما أفرزته من إعلام رقمي، يبدو بديلًا عن صحافة ورقيّة تجهد من أجل الاحتفاظ بمساحة لها في عالم التواصل. وما يعزّز هذا المسار، أنّ القرّاء التقليديين للصحافة المكتوبة ينزحون بكثافة إلى شبكة الإنترنت، ويعتمدون وسائل التواصل الجديدة والأجهزة الذكية لمتابعة الأخبار ورصد المعلومات في آنيتها، علمًا أنّ «الخواء السياسي الذي نعيش فيه، وتعيش فيه الكثير من الشعوب العربية هو أخطر ما يتهدّد الصحافة العربية، في لبنان وخارجه، قبل وسائط التواصل الاجتماعي»، كما يكتب ناشر جريدة «السفير»، طلال سلمان (سلمان، ٢٠١٧، ص ٣٨٠).

إذا كان التطوّر والتطوير مسارين متلازمين في عالم التواصل، كما هو الحال في مختلف مناحي الحياة، فإن التحوّلات الجذريّة في البنية الإعلامية تقتضي هذا التلازم الضروري بين التقنيّة الحديثة وما تفرزه من منظومة قيم ومفاهيم وتحديّات وظيفية، من جهة، وآليات العمل الإعلامي وضرورة مواكبة قواعد السوق من جهة ثانية. إذ يفترض بالصحافة اعتماد سياسة اعلامية جديدة، تحريرًا وأسلوبًا ومضمونًا. وفي سياق هذه الدراسة، فإنّ السؤال المركزي هو: كيف تجهد الصحافة المكتوبة للاستمرار وتجاوز التحدّيات؟

وهذا ما ينجم عنه طرح التساؤلات الآتية:

– ما هي الإستراتيجية التحريرية الواجب اعتمادها من قبل المؤسسة الإعلامية، بما يتيح لها حفظ دور وموقع في عالم التواصل؟

– كيف يمكن تطوير الرسالة الإعلاميّة على قاعدة تحويل المعلومة أو الحدث إلى معرفة نوعيّة أكثر شموليّة من مجرّد معطى خبري؟

– هل يمكن للصحافة المكتوبة أن تعيد إلى الإعلام وظيفة التواصل، بالمعنى التفاعلي المرتكز إلى تعدّدية وتعايش وتفاهم واحترام للتنوّع؟ فالصحافة المكتوبة، وبما تتميّز به من مهنيّة عالية، هي الأكثر قدرة على «تنظيم التعايش بين وجهات نظر مختلفة»، كما يعبّر دومينيك وولتون (Dominique Wolton)، لأنه «لم يعد كافيًا أن نسرّع من وتيرة إنتاج وتوزيع المعلومات من أجل تحقيق تواصل أكبر» (وولتون، ٢٠٠٩، ص ٢١).

– هل الإستراتيجية الإعلامية المعتمدة ستسمح للصحافة الورقيّة الاستمرار وتعطيها مقوّمات البقاء؟

وفي سياق هذه التساؤلات المنهجية، فإنّ الفرضيّة التي يمكن اعتمادها إنما تتفاعل فيها مجموعة عوامل، تبدأ من الموقع التاريخي المترسّخ والتراث العريق لقطاع الصحافة المكتوبة في لبنان، ومتغيّرات البيئة الإعلامية، تقنيًّا ومفهومًا ومهنيًّا، بما يعنيه ذلك من تطوير آلية العمل والمضمون والأسلوب، وصولًا إلى البنية الثقافية والسياسية للمجتمع، وخصوصية التعددية وتنوّعها، أيديولوجيًا وسياسيًا وانتماءً، وكذلك مدى الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة في كل مراحل إنتاج المطبوعة. ولا يتمّ في هذا المجال، تجاهل الوظيفة المركزية المطلوبة من هذه الصحافة، أي صناعة الرأي العام «النخبوي»، ولا سيما في ظل واقع مأزوم بنيويًّا، وما يفترضه ذلك من حرص أطراف متعدّدة على توفير الدعم المالي الضروري للاستمرارية.

انطلاقًا من هذه المعطيات، لم تعد الفرضية تركّز على ما إذا كانت الصحافة الورقية في أزمة مصيريّة، أو رصد الأسباب الموضوعية والذاتية التي أدّت إلى الأزمة القائمة، بل إنّ الفرضية تنحو إلى تثبيت مقولة بقاء الصحافة المكتوبة واستمرارها، أقلّه على المدى المنظور، وذلك ضمن بيئة إعلامية شديدة التنوّع، وتتسع لوسائل تواصل ومعرفة، بدءًا من الكتاب والصحيفة، وصولًا إلى الإعلام الرقمي، من جهة، وتلبية لمتطلّبات شرائح «نخبوية»، من جهة ثانية.

وللإجابة عن هذه التساؤلات، تنطلق الدراسة من واقع الصحافة الورقية في أزمتها، ومقوّمات «صمودها» أمام الثورة التقنية. ويتم رصد السياسة التحريرية «الجديدة» التي تحملها الصحافة المكتوبة وقراءتها. إذ تحوّلت (في غالبيتها) من الوظيفة الخبرية الطاغية على صفحاتها إلى الوظيفة التحليلية والقراءة الإخباريّة والتفسير والمعلومات الجديدة وإعطاء أبعاد للحدث. تتعامل مع الحدث اليومي خارج النسق الخبري التقليدي، وتذهب إلى

ما يمكن اختصاره بمصطلح "القراءة الإخبارية"، وهي في ذلك إنما تستند إلى كادر إعلامي مهني يمتلك خبرة وشبكة علاقات مهمّة في المجال العملي.

ب – منهجيّة الدراسة

تنحو هذه الدراسة إلى اعتماد منهج المسح الإعلامي و«التحليل النوعي» في إطار تقنيّة بحثيّة محدّدة ترتكز بصورة أساسية على البيانات التي تأتي «في مجموعة معيّنة من الأشكال، مثل الملاحظات التي يتم إبداؤها أثناء الرصد، ونصوص المقابلات والوثائق والمذكّرات والمجلّات» (انظر: ويمر ودومينيك، ٢٠١١، ص ٢١٥). وفي هذا السياق، تمّ رصد أعداد عشوائية من صحف لبنانية متعدّدة، وتفحّص المادة التحريرية على اختلافها، بما يتيح توليد تأكيدات تثبت صحّة الفرضيّات التي انطلقت منها الدراسة. «إنّ تحليل البيانات في الدراسة النوعية يتمّ مبكرًا أثناء عملية الجمع ويستمر طيلة المشروع. وإضافة لذلك، فإن الباحثين عمومًا يتّبعون النموذج الاستنباطي (Deductive) في تحليل البيانات: يتمّ تطوير الفرضية مسبقًا قبل الدراسة، وبعدها يتمّ جمع البيانات ذات العلاقة. ثم يتمّ تحليلها لتقرير ما إذا ثبتت الفرضية» (ويمر ودومينيك، ص ٢١٦).

أمّا من حيث المضمون، فإنه يتمثّل في تفكيك النصوص وتحديد الإطار المهني الذي تنضوي فيه. ولذا، يتمّ دراسة الحالة، والمنحى الذي تسير فيه، مقارنة مع نماذج تقليديّة للرسالة الإعلاميّة.

أمّا هدف هذه الدراسة، فهو رصد عوامل التغيير الوظيفي وأساليب التحرير المعتمدة في قطاع الصحافة المكتوبة في لبنان، علمًا أنّ هناك عوامل «خارجية» عدّة تواكب هذا التغيير، في سياق التحوّلات التي تشهدها البيئة الحاضنة، أي المجتمع اللبناني، ثقافيًّا، تقنيًّا، تفاعليًّا، وكذلك اجتماعيًّا وسياسيًّا. كما تسعى الدراسة إلى رصد عناصر القوة «المفترضة» لدى الصحافة المكتوبة وأساليب الممارسة المهنية فيها، ومعرفة الإستراتيجية العامّة التي تعتمدها لمواكبة المتغيّرات.

ج – مجتمع الدراسة

تفترض هذه الدراسة، وارتكازًا إلى الإشكالية التي انطلقت منها، أن يكون مجتمع الدراسة مقتصرًا على نماذج صحافية في فترات زمنية عشوائية، وتتراوح بين منتصف العام ٢٠٢١ وبداية العام ٢٠٢٢، وتشمل عددًا

من الصحف اليومية اللبنانية في طبعاتها الورقية. ويتيح هذا الاختيار التثبّت من مسار التغيير الذي اعتمدته الصحف المطبوعة في خطّها التحريري بما يضمن لها، في عملية التواصل، موقعًا تفترض أنّه يلائم دورها المختلف والمتميّز، قياسًا إلى بقية الوسائل الإعلامية.

والهدف من إجراء الدراسة على عدد من الصحف، التأكيد أنّ هذا النهج التحريري ليس استثناءً في هذا القطاع، وإن تفاوتت النسب في ما يتعلق بالمساحة الإخبارية التقليدية، وهي من ضرورات أو "التزامات" هذه الصحيفة أو تلك، حيال هذا الحدث أو ذاك، ولا سيّما حين يكون الحدث كبيرًا وله تداعيات، أو حين تكون مناسبة الحدث أو الشخصية المحوريّة فيه، تفترض حضوره خبريًّا، وذلك التزامًا بالوظيفة الأساس للصحيفة؛ نقل الحدث والخبر. ولا بدّ من الإشارة إلى أن النماذج المستثناة من الدراسة هي الصحف التي لا تزال تعتمد بشكل أساس، المسار التقليدي المتمثّل في نقل أخبار أمس، مع حيّز محدود للتحليل أو المقال أو القراءات الإخبارية.

٢. الصحافة المكتوبة في لبنان: الفضاء العام

الصحافة المكتوبة في لبنان، من حيث المنطلق، وأيًّا تكن هويّتها السياسيّة والأيديولوجيّة، تعبّر، مجتمعة، عن الفضاء العامّ بكلّ تفاعلاته وقيَمه وتعدّديته. لم تنتظم في خطّ واحد، موالاة أم معارضة، بل تجاوزت هويّة السلطة السياسيّة القائمة، وخرجت عن «طاعتها» وعن خطابها ورؤيتها الأحاديّة. وجاءت تعبيرًا عن المزاج الشعبي وعن اتجاهات الرأي العام في كافّة متغيّراته. والأهمّ أنّها أسهمت في تحويل المجتمع إلى «رأي عام» يتفاعل بحيويّة ووعي مع القضايا التي تواجهه.

كما استفادت الصحافة من مجموعة عوامل صنعت نفوذها وتأثيرها المحلّي والعربي. فطبيعة النظام اللبناني الخاضع لتوازنات داخليّة وخارجيّة، سمحت بالتعدّدية السياسيّة. والخبرات القديمة في مجال الصناعة الإعلاميّة، شكلًا ومضمونًا وتنفيذًا، أطلقت العنان لهذه الصناعة. وقوى النفوذ الطائفي والسياسي وارتباطاتها المتشابكة، أتاحت لها نسج علاقات متينة مع الصحافة، إلى حدّ اعتبارها، في بعض النماذج، رمزًا مؤسّساتيًّا يجب الحرص على استمراره.

هذا المسار حصّن الصحافة، ومنحها مصداقيّة راسخة وحضورًا مستمرًّا لدى جمهور يحرص على أن يتلقّى الرسالة الإعلامية والمعلومات الضرورية، ومن مصادر متعدّدة، بما يتيح له أن يكون مشاركًا في صنع القرار في الحياة العامة.

أ – بيئة الصحافة في لبنان

لا تنفصل البيئة الصحافية في لبنان (وفي أيّ نموذج آخر) عن بيئة المجتمع، بكلّ مكوّناته وبنائه، ومدى تطوّره الثقافي والسياسي. ومن المفارقات التاريخية في مسيرة الصحافة اللبنانية التي انطلقت بمبادرات أهلية وفرديّة، أنها، ومن أجل الحفاظ على حرّيتها واستقلاليتها، خاضت معارك مع السلطة القائمة، أيًّا تكن هويّة هذه السلطة، سواء في الحقبة العثمانية، أم في عهد الانتداب، وصولًا إلى دولة ما بعد الاستقلال. وكان يجب انتظار العام ١٩٥٢ لتحقّق الصحافة اللبنانية «نصرًا باهرًا وعظيمًا في معركة الحريّات الصحافية في لبنان، وانتهت معها أزمة سياسية كبرى ارتبطت بها، فأطاحت بعهد الرئيس بشارة الخوري وفريق حكمه السياسي» (صقر، ٢٠١٠، ص ٤٨).

كانت هذه الصحافة تعبّر عن البيئة بمجالها الشامل، وتنقل الاتجاهات والميول المتنوّعة السائدة. وكان التصارع السياسي والأيديولوجي يسم الحراك الفكري لشريحة واسعة وفاعلة في المجتمع. استنادًا إلى هذا «التاريخ»، يمكن الذهاب إلى أن خصوصية الصحافة المكتوبة في لبنان وتاليًا العملية الإعلامية، تعود إلى عوامل البيئة الحاضنة، وإلى وظيفة هذا الإعلام في التعبير عن تيّارات واتجاهات يتقاطع فيها الداخل مع الخارج. إذ إنّ كل وسيلة إعلامية إنّما هي «ناطق» معلن ولكن غير رسمي، باسم هذه الفئة (التي غالبًا ما تكون طائفة محددة) في الداخل، وطرف فاعل في الخارج. «الصحافة اللبنانية تاريخيًّا، تحيا بالدعم المادي من رجال السياسة (والطوائف) ومن الدعم المالي المباشر (وغير المباشر) من الأنظمة العربية، لا سيّما الغنية منها مقابل خدمات. وهذا الدعم تراجع أو انعدم» (جابر، ٢٠١٩، ص ٨٠).

هذا ما ينقلنا إلى مقاربة مبدئيّة – وظيفية للصحافة، إذ «منذ نشأة وسائل الإعلام الجماهيريّة، بصيغتها التقليدية، وهي أمام معضلة التواصل مع المتلقّي: الناظم الأساسي لهذه العلاقة كان دائمًا يُستمدّ من مدى تعبير

المؤسسة عن بيئة المتلقي وأهوائه وميوله (السياسية وغيرها..)» (نون ونجم، ٢٠١٩، ص ١١٦). كما أنّ «مستقبل صناعة الصحافة يعتمد بدرجة كبيرة على قدرة وسائل الإعلام على فهم جمهورها» و«على إشباع الاحتياجات الإعلامية للجمهور»، و«على تقديم مضمون متميّز» (حسين، ٢٠١٧، ص ١٤٢).

ب – خصوصية ثقافيّة وسياسيّة

الصحافة المكتوبة في لبنان هي نتاج خصوصية ثقافيّة وسياسيّة، بمقدار ما تعبّر عن البيئة المحليّة ونبض البلد واتجاهاته. كانت المصدر الوحيد للمعلومة والخبر والقراءة السياسية للحدث، تبعًا لهويّة المؤسسة واتجاهاتها. وقد استفادت في هذا السياق من مساحة واسعة من حرية التعبير، وخصوصًا من واقع التعدديّة في المجتمع. ذلك أنّ الحالة السياسيّة في لبنان، المتوتّرة غالبًا، تحتاج إلى من يعبّر عن تناقضاتها ومواقفها، أي تحتاج إلى وسائل إعلام تعكس هذا الواقع. والصحافة المكتوبة، وإن كانت في معظمها «مستقلة» عن الأحزاب، إلّا أنّها جميعها تسهم في صناعة الرأي العام، بل إنّ المواطن (في لبنان) يكون في اليوم الثاني للحدث، متلهّفًا للاطلاع على التحليل والتفسير والتوضيح والخلفيّات. وهذا كلّه لا يجده، بشموليّته وعمقه، سوى في الصحيفة اليومية وما تقدّمه من قراءة إخباريّة. يقول حسن الحسن في كتابه الصادر في العام ١٩٨٦، «إن المواضيع التي تستهوي اللبناني هي التي تعالج السياسة الداخلية والخارجية، وكذلك الافتتاحيّات والمقالات والرياضة أيضًا» (الحسن، ١٩٨٦، ص ١٥١).

من هنا، تحمل الصحافة المكتوبة تراثًا تقليديًّا في عالم الإعلام، بما تمتلكه من إمكانيات وخبرات متراكمة، وحضور فاعل لدى الجمهور المتلقّي، وعلاقات مؤثّرة، بما في ذلك مع قيادات وأصحاب نفوذ وقرار، وشركات متنوّعة الاختصاصات والتوجّهات. أضف إلى سياسة إعلامية ذكية وموجّهة وتستند إلى مفكّرين ومثقّفين وناشطين في مختلف المجالات والقطاعات، وما تنشئه من روابط وعلاقات متجذّرة تصل إلى أصحاب القرار وكبار المسؤولين والنافذين في المجالات السياسية، والاقتصادية، والصناعية، والاجتماعية، وأصحاب رؤوس الأموال، والحكومات.

ج – تراجع الوظيفة الإخباريّة للصحف

منذ انطلاقة الإذاعة كوسيلة إعلام جماهيرية، في بدايات القرن العشرين، وما أعقبها بعد عقود قليلة، من انتشار أجهزة التلفزة، اهتزّ الموقع «الاحتكاري» للصحافة المكتوبة على أنّه مصدر شبه وحيد للرسالة الإعلامية. لكنّها تمكّنت من «التعايش» مع هذه التحديّات وإنْ مع خسارة معقولة. لكنّ الثورة الرقميّة حملت تحديّات أكثر جذريّة تتمثّل في «أن اهتمام الجمهور بالإعلام الخبري يتآكل كل سنة» (بوليه، ٢٠١١، ص ٤٦). ويشير بوليه إلى دراسة للباحث الأميركي روبرت بيكارد (Robert G. Picard) تناول فيها «ظاهرة عدم الاهتمام بالإعلام الإخباري في الولايات المتحدة»، ونِسب التراجع في أعداد قرّاء الصحف ومتابعي النشرات الإخبارية، ما يعني «استنفاد المعتقدات والالتزامات والنماذج الجماعيّة وانتصار الفرد وتجزّؤ المجتمعات كأسباب لانخفاض اهتمام الجمهور الكبير بالأخبار» (ص ٤٨).

هذا الانكفاء عن «المعتقدات والالتزامات» هو الوجه الآخر، والأهم في معادلة المرسل – المتلقّي. فالرسالة بمضمونها التقليدي إلى تراجع مستمر: لا أهمّية للأخبار والأحداث خارج دائرة الاهتمامات الفرديّة الضيّقة والانغلاق داخل عالم «الويب» الخاص، ما يعني أن الفضاء المشترك الواسع في حال تراجع. والمجتمعات تغدو أكثر «محلية» في قضاياها واهتماماتها. ويغدو الرأي العام متصدّعًا، بل متشظّيًا وأقلّ تفاعلًا حيال الشأن العام. يتحدّث دومينيك وولتون(Dominique Wolton) في كتابه «الإعلام ليس تواصلًا» (Informer n’est pas communiquer) عن «أيديولوجيتين تتهدّدان التواصل تتمثّلان في النزعة الفردية، أي تقلّص التواصل إلى حدود التعبير والتفاعل، والنزعة الجماعية (الطائفيّة)، أي تهميش مسألة الغيريّة، مع إمكانيّة الانغلاق ضمن فضاءات افتراضيّة أو احتماليّة غير ملموسة» (وولتون، ٢٠٠٩، ص ٣٤).

تمثّلت التجربة اللبنانية، في هذا السياق، وبدءًا من العقد الأوّل من القرن الواحد والعشرين، في إغلاق صحف عريقة ومؤثّرة، منها السفير، المستقبل، الأنوار (ودار الصياد)، لسان الحال، البيرق، الاتحاد، وكذلك مجلة الحوادث، ومجلتا «لا ريفي دي ليبان» (La Revue du Liban) و«مونداي مورنينغ» (Monday Morning)، فيما عمدت صحيفة الحياة إلى إغلاق مكاتبها في بيروت. وفي موازاة ذلك، وفي الفترة الزمنية عينها، لم تخلُ

الساحة الإعلامية من عملية إطلاق صحف ورقية، ومنها الأخبار (٢٠٠٦)، والجمهورية (٢٠١١)، ونداء الوطن (٢٠١٩). لكنّ هذه المعادلة لا تعني عدم تقلّص أعداد الصحف التي تشهد تراجعًا واضحًا في العناوين، وفي أعداد النِسخ المطبوعة.

٣. الرسالة الإعلامية: تنافس وتكامل

تقف الصحافة المكتوبة، في معركة الاستمرارية والبقاء، أمام غريمين يمتلكان، كلّ من موقعه ومواصفاته، الكثير من أوراق القوة: الإعلام المرئي والإعلام الرقمي. ولكل منهما آفاقه الواسعة وحضوره المؤثّر، وخدماته المتنوّعة والخطيرة.

أ – الإعلام المرئي هو حامل الصورة (المباشرة) بكل حضورها الباهر، ولا سيما مع الانتشار الواسع لأجهزة التلفزة، أفقيًا، ومع نوعيّة المضمون، عموديًا. إذ راكمت هذه الوسيلة الإعلامية خبرات تقنية وفنية وأساليب تواصل ذكية، والأهم، مساحة واسعة من العناوين والمواضيع والخدمات وسبل الترفيه والتسلية، ومن ضمنها طبعًا التنوّع الكبير في عروض الأفلام والمسلسلات والبرامج، ما أتاح لهذه الآلة ان توقع في «أسرها» مجمل فئات المجتمع، على اختلاف الأذواق والعادات والاهتمامات والأعمار.

ب – الإعلام الرقمي هو الثورة الشاملة (وليست الأخيرة) في مجال التواصل، إذ جعل من البشرية جمعاء شركاء (من حيث المبدأ) في صناعة الرسالة الإعلامية، بعد أن كانت حكرًا على وسائل الإعلام، ما ترك تداعيات على مفهوم التواصل ووظيفته، وعلى نمط العلاقات الإنسانية. يقول غسان مراد: «تمثّل الثورة الرقمية تغيّرًا جذريًّا في الاتّصالات، ما يسهم في تغيير المجتمع، ويرسم آفاقًا جديدة في تطوّر الافراد والمؤسسات والحكومات والنظم والدول» (مراد، ٢٠١٩، ص ٢٦).

والمفارقة في هذا السياق، أنّ الصحافة الورقية، في عملها اليومي، إنّما تستفيد من تقنيات الإعلام الحديث بتطبيقاته المتعددة، وهذا ما يتجلّى في كلّ مراحل إنتاج المطبوعة، بدءًا من رصد الأخبار وتحريرها. وبعد ذلك، إلى غرف الإنتاج، من تصميم وإخراج، ثم النشر. كلّ هذا المسار يتم من خلال برامج وتطبيقات إلكترونية توفّرها التكنولوجيا

الحديثة؛ فالإنترنت وأجهزة الكومبيوتر أصبحت جزءًا من أجهزة الاعلام، أيًّا يكن مآل النشر، سواء كان ورقيًا أم رقميًا.

٤. الصحافة المكتوبة: مهنيّة «متقدّمة»

أبعد من ثقافة الترفيه واكتساب المعارف والمعلومات، في ما يخصّ وظيفة التلفزيون بداية، ثمّ الإعلام الرقمي لاحقًا، وهي، كما يفترض الباحث الأميركي هربرت شيللر، وظيفة «لا تنطوي على أيّة أغراض تربوية أو تعليمية» (شيللر، ١٩٩٩، ص ١٠٤)، فإنّ المعركة الإعلامية الحقيقية والمؤثّرة إنّما تُخاض على قاعدة الدعاية والدعاية المضادة، والتي تشكّل الصحافة المكتوبة ساحتها المفضّلة لدى صانعي الرأي. فمن خلال هذه الوسيلة الإعلامية، يتمّ تقديم التحليل المعمّق والقراءة الذكيّة للأحداث، وما تستحضره من براهين «علمية» هادئة ومن أرقام ومعطيات واستعادة لوقائع، وشموليّة في تقديم العناصر الضرورية لعرض وجهة النظر والدفاع عن الرأي «المنحاز» في خضم الجدل والحوار (الصاخب أو الهادئ)، بعيدًا عن الموقف الغريزي أو الخطابي.

وتحرص الصحافة المكتوبة على المعالجة المهنية «المتقدّمة» للحدث اليومي وكل ما يتيح إكمال القصة الصحافية (Fitchers)، ليس فقط في الإطار الإخباري الحدثي، إنما في رصد الأبعاد والتداعيات، أي في التنقيب عن الماضي، وفي رصد الحاضر، ومحاولة استشراف (أو استقراء) المستقبل.

أمّا الإعلام المرئي، فإنّه يولي أهميّة استثنائية للحدث الحي (live) مع كلّ ما يتطلّبه ذلك من مؤثّرات تأخذ أحيانًا كثيرة الطابع الاستعراضي (أو المسرحي)، ومن مشهديّة ميدانيّة تنطلق من قلب الحدث. يعلن الخبر في لحظة حصوله، مرفقًا بالصورة الحيويّة والصاخبة. هذه الوظيفة الخبريّة في الإعلام المرئي، تبدو سطحية، ومشهديّة، وسريعة، لا تجيب أحيانًا كثيرة عن أسئلة: لماذا؟ كيف؟ ما هي الأبعاد أو التداعيات؟.. هذه الاسئلة لن تلقى أجوبة تلقائية وجوهريّة في رسالة المندوب أو المراسل الميداني، من جهة، ولأن التلفزيون يبقى، من جهة ثانية، في حالة «مطاردة» للمستجدّات في الحدث، أو انه ينتقل إلى حدث آخر، في مطاردة متواصلة للأخبار.

وفي المقابل، فإنّ الصحافة المكتوبة، مستفيدة من فسحة ساعات (بين وقوع الحدث ونشره) ومن ضغط محدود في المتابعة الميدانية، تحرص على المعالجة المهنيّة «المتقدّمة». تذهب إلى كل ما يقتضيه العمل الصحافي لإكمال صورة الحدث: لماذا وقع، كيف حصل، ما التداعيات، ما الخلفيات (القريبة والبعيدة أحيانًا)، إعطاء أبعاد للحدث، تحليل الوقائع من قِبل متخصصين، الحصول على مواقف أطراف معنيين. وهي بطبيعة نتاجها المرتكز إلى التحليل والقراءة الإخبارية إنّما تلبّي احتياجات شريحة واسعة من القراء. وهنا يأتي دور الكادر الصحافي (المتّسم بمهنيّة عالية)، وبما لديه من خبرة وثقافة، ومن شبكة علاقات، وأرشيف، ومساحة، وإدراك لأهميّة المقاربة المعمّقة للحدث لتقديمها في اليوم التالي إلى جمهور القرّاء.

وتستفيد الصحافة المكتوبة، في موازاة ذلك، من مصداقيّة مترسّخة راكمتها من خلال خطاب إعلامي موزون ومتوازن وتعدّدي، وإن تباينت منطلقاته الفكرية والسياسية والايديولوجية. وفي المقابل، تبدو الديناميكية التواصلية الجديدة المرتكزة إلى شبكات التواصل أمام أزمة المصداقية وغياب المهنيّة العالية. فهناك حسب بيللارجون (Baillargeon) «وهم خطير يتمثّل في الاعتقاد بأن أيّ شخص يمكنه ودون أي عملية تأهيل، أن يصبح صحافيًّا أو من كتّاب التحقيقات»، إضافة إلى أنّ «الهويّة الصحافية تتراجع مع ما يشهده "الويب" من مضامين ملتبسة تعزّز التخيّلات والأوهام والأخبار المغلوطة». (بيللارجون، ٢٠١٤، ص ١٠). ويذهب أندرو كين (Andrew Keen) إلى أنّ "ثورة الويب لا تقدّم لنا إلا نظرة سطحيّة على العالم بدلًا من التحليلات المعمّقة، وتقدّم الآراء الحاسمة بدلًا من المنطق الاستدلالي المتوازن، وقد تحوّلت المعلومة من خلال الإنترنت إلى منتجٍ مشوّش بمئات الملايين من المدوّنين الذين يُعبّرون في الوقت ذاته عن أنفسهم" (كين، ٢٠٠٨، ص ١٦).

٥. متغيّرات السلوك الاتّصالي والمهني

لا نقف في هذه الدراسة عند مضمون الخبر أو أي مقاربة مهنية للأحداث والمعطيات التي نتّخذها كنماذج، بمقدار ما نقف عند الكيفيّة التي تعتمدها الصحف المكتوبة في هذه المقاربة. ذلك أنّ تحليل المضمون في هذه الدراسة، إنّما يهدف إلى إبراز الأسلوب التحريري المعتمد، وليس الاتّجاهات أو الخيارات التي تحكم هوية كل مؤسسة. تُسبغ سوفي موارن (S. Moirand) على الصحافة المكتوبة ما تعتبره «الإخراج المشهدي»، إذ «أنّها

تسهم فيه بطريقتها: عبر العناصر السيميائية للنصّ الحاف (التقديم، الجداول التوضيحية، الهوامش، الصور، الجداول، الرسوم، العنونة...» (موارن، ٢٠٠٩، ص ٩٧).

وفرضت المتغيّرات التقنيّة الإعلامية وما رافقها من مفاهيم في مجال التواصل نمطًا جديدًا من العمل المهني في الصحافة المكتوبة، طالت أقسام التحرير، مكتبيًا وميدانيًا. يولي غسان مراد «مسألة النصّ وتركيبته» أهميّة، ويقول: «التخبّط الحاصل في عالم الإعلام العام، وخصوصًا الصحافة المكتوبة التي يرتكز عملها على النصوص، متأتٍّ بمعظمه من غياب المواكبة الفعليّة للمتغيّرات التقنية المتصلة بإنتاج النصوص ونشرها. هناك مسار فائق التعقيد في مسألة النصّ وتركيبته في الزمن الحاضر، ما يجعل النظرة الحدّية إليه بالأبيض والأسود، غير مجدية» (مراد، ٢٠١٩، ص ٢٢٩).

إنّ التحديّات الماثلة أمام القيّمين على هذا القطاع تفرض تقديم رؤية إستراتيجية مختلفة للعمل الصحافي وفي مقاربة الرسالة الإعلامية، بما يعطي قيمة مضافة للمعطى الخبري. فهناك جمهور متطلّب وينتظر أن تعبّر الصحافة عن همومه واهتماماته ومصالحه، وعن تطلّعاته ورؤاه في مختلف الميادين، سياسيًا، فكريًّا، أيديولوجيًا. وأن تكون أداة تثقيف وتعليم وإعلام وترفيه وتسلية. هذه المهام أو التحديّات الوظيفية كانت الحافز لكي تشهد الصحافة تطوّرات متسارعة نقلتها من مجرّد «ساعي بريد» ينشر الخبر، أو ناقل محايد للمعلومة، إلى شريك في صناعة الرأي العام. لقد غدت المؤرّخ اليومي للمجتمع بكل تعبيراته وتفاعلاته وحيويّته. بل إنّ الصحافة المكتوبة في هذه المرحلة إنما كانت تتأثر بالحضور الطاغي للكِتاب، وتتماهى مع رصانته وتستعير كتّابه. إذ لم يتردّد أدباء ومفكّرون ومثقّفون في صبّ عصارة أفكارهم في الصحف المكتوبة.

ينقل بوليه عن المؤرّخ بيار روزانفالون تعريفه لوظيفة الصحافة بأنه «يجب أن تقوم الصحيفة بوظيفتين: هما تنظيم الفضاء العام وكشف الحقائق الخفيّة. وكشف الحقائق يعني في المقام الأول ان تكون مرآة للمجتمع كي يحيط علمًا بحقيقة الأمور» (بوليه، ٢٠١١، ص ٧٦). في هذا التعريف، غابت الوظيفة التقليديّة والتاريخيّة للصحافة. أي نشر الخبر، بعد أن غدت بقية الوسائل الإعلامية سبّاقة في نقل الحدث مباشرة وفور وقوعه. لذا، تذهب الصحافة المكتوبة إلى مقاربة المعطيات الحديثة بصورة مختلفة. «فمهنة الصحفي تقوم على تحديد هويّة

المشاكل وتوثيقها بالمستندات والتحقّق مما تكشف عنه، أو ممّا يقال عنها، ثمّ صياغة الأسئلة ووضعها في الإطار الخاصّ بسياقها وعرضها. إنّ هذا العمل المتمثّل في ترتيب الأمور قياسيًّا ودلاليًّا، وفرزها وسلسلتها هو ما يعطي أهمية ومعنى لركام الأخبار التي تصل كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، كما نراها اليوم على الإنترنت» (ص ٧٦). ويتحدث محمد الراجي عن تأثير انتشار الإنترنت و«التحوّل المتعاظم في السلوك الاتصالي للجمهور/المستخدمين نحو وسائل الإعلام الجديد وشبكات التواصل الاجتماعي وشاشات الهواتف الذكية»، وما نجم عن ذلك من «تأثير كبير عرفته الصحف في آليات الممارسة الإعلامية، وفي مفهوم الصحيفة نفسها ومفهوم الخبر أيضًا وفي نظرتها للمتلقي» (الراجي، ٢٠٢٠، ص ٢٣٠).

وعلى هذا، تتجه الصحافة المكتوبة إلى تطوير مقاربتها للرسالة الإعلامية. والبداية من «واجهة الصحيفة»، أي عنوان المانشيت، وخبر المانشيت الذي يقارب الأمور المحلية الأساسية، إضافة إلى الأخبار الأساسية ومقالات الرأي المهمة. كما تعمد الصحافة المكتوبة إلى اختيار قضايا وعناوين، وغالبًا الأخبار المهمة، إنما بمقاربة تحليلية وتوليفية غير تقليدية. أي تنطلق من الحدث الذي أُشبع تغطية من قبل بقية وسائل الإعلام، لتقديمه من ضمن حيثيّاته، ظروفه، خلفيّاته، الأسباب، ما يعطي الخبر أبعادًا تعيد «تنشيطه». والصحافة المكتوبة تتميّز بالتعمّق في قراءة الحدث على قاعدة تحليلية، أكثر مما هو متاح أمام الإعلام الرقمي أو المرئي والمسموع.

وتعتمد الصحافة المكتوبة أشكالًا متعدّدة لتنشيط الخبر: تذكير بأساس القضية أو المسألة المطروحة، مقابلة مع الجهة المعنيّة أو «المفيدة»، ربط الأحداث، استعادة معطيات سابقة وتركها تتفاعل مع المعطى الحدثي الجديد، إجراء مواكبة ميدانية تتيح رفد الحدث بمادة خبرية. كما تعمد إلى استكمال الخبر من خلال جمع المعلومات والبيانات، وهي جزء من مهمة إعطاء أبعاد للحدث، لا سيما حين يتطلب الأمر إلقاء الضوء على معطيات ضرورية غير معلنة.

أ – خبر المانشيت

هو الخبر الذي يتصدّر الصفحة الأولى من الصحيفة المكتوبة. ويتميّز بعنوانه الجاذب والمكثّف والسريع الذي يعلن من خلال أحرفه الكبيرة، الحدث الرئيسي (في داخل البلاد أساسًا، أو في الخارج، حين يقتضي الحدث

ذلك). وخبر المانشيت هو الواجهة التي تعلن الصحيفة من خلالها، زاوية مقاربتها للحدث، وهويّتها (السياسية). ويؤشّر بوضوح إلى رؤيتها لمسار الأحداث والمعطيات، ويعطي الصحيفة شخصية خاصة بها. لذا، فإنّها تولي أهمّية قصوى للمضمون (الحدّ الأقصى من المعلومات المتوافرة). فتطغى المعطيات الخبرية الخاصّة التي تمكّنت الصحيفة، بوسائلها وعلاقاتها المتشعّبة من الحصول عليها، ومنها: المعلومات والمعطيات، والمقابلات (السريعة والمتعلقة حصرًا بالحدث). ويتمّ اعتماد أسلوب التحليل والقراءة الإخبارية وإعطاء أبعاد، بما يمكّن أنّ اعتباره عمليّة توليف. ويتولّى صياغة الخبر عادة، صحافي متمرّس، يكون غالبًا رئيس التحرير أو المدير.

نماذج عناوين وأخبار مانشيت

* الصحف في يوم ٢٢ / ٢ / ٢٠٢١

– الأخبار: حرب إعلامية في الوقت الحكومي الضائع

أزمة التأليف مستعصيّة

– الجمهورية: مبادرة باسيل تُشعل ساحة التأليف

سنذهب إلى منازلهم (مع صورة لأهالي ضحايا مرفأ بيروت)

– البناء: الانتخابات الفرعيّة تدقّ أبواب التيار والقوات والكتائب والمجتمع المدني... وجنبلاط مرتاح

* الصحف في ١٨ / ١١ / ٢٠٢١

– الديار: الطعن يُرحِّل الانتخابات إلى آذار

بديل التسوية الحرب الجوية (مع صورة مناورات عسكرية في منطقة الخليج)

– النهار: صراعات السلطة تتمدّد إلى المجلس الدستوري

– الأخبار: السعودية قد تصعّد من إجراءاتها ضدّ لبنان

الرياض: لا دعم للجيش ولا ثقة

نموذج خبر المانشيت ١ – (عدد صحيفة النهار في ١٨ أيار/ مايو ٢٠٢١). «مع أنّ العامل الإيجابي شبه الوحيد الذي يتكرّر تأكيده عند محطات خارجية وداخلية متعاقبة يتمثّل في أنّ الأزمة اللبنانية لا تزال تجد مكانًا بارزًا لها في اهتمامات المجتمع الدولي..».

المدخل جملة تمهيدية تنقل أجواء سياسيّة تتعلّق بالأزمة اللبنانية، يقرأها المحرر «كعامل إيجابي شبه وحيد»، يتمّ التعبير عنه من خلال «اهتمامات المجتمع الدولي». هذا التمهيد من المحرّر، ينبئ بأنّ هناك ما سيؤثّر سلبًا في هذه الإيجابية، مطلقًا توصيفات سلبيّة، فيشير في نصّ الخبر إلى «موقف سوداوي متشائم حيال الطبقة الحاكمة...». هنا، يستعيد الأجواء السياسيّة المتراكمة منذ أشهر ليصل إلى الاستنتاج البديهي: «فإنّ الخطير أن يغدو لبنان مهدّدًا في علاقاته بالدول الصديقة والشقيقة على يد مسؤولين بأنفسهم».

يتولّى المحرّر، هنا، عملية ربط وتحليل محدود: الربط بين المواقف وما تخلّفه من نتائج "سلبية" بالنسبة إلى لبنان، ثمّ يصل إلى المعطى الخبري الذي دفعه إلى هذه القراءة: «وهذا ما حصل أمس مع موقف غريب ومستهجن لوزير الخارجية». ويذهب، في تعبير عن سياسة الصحيفة، إلى حدّ اتهام وزير الخارجية بأنّه «فتح الباب على تدهور خطير في علاقات لبنان بالدول الخليجية...».

نموذج خبر المانشيت ٢ – (عدد صحيفة الأخبار في ١٨ ايار / مايو ٢٠٢١). «أخيرًا، انطلقت منصّة رياض سلامة من دون أن يكون ثمة منصّة فعلية، بل مجرّد أكاذيب إضافية ينشرها الحاكم للتهويل على المودعين والضغط لإصدار قانون يتيح له تغطية موبقاته السابقة واللاحقة».

المدخل معطى خبري: انطلاق المنصّة، لكنّه تعامل بصورة اتهاميّة وتشكيكيّة: إنّها «منصّة رياض سلامة»، أي ليست منصّة رسميّة (مصرف لبنان المركزي)، لأنّه «لا منصّة فعلية بل مجرّد أكاذيب». هنا، تقدّم الصحيفة في المانشيت قراءة في هذا الإعلان وتراه كاذبًا. وتذهب إلى ما تفترضه هدف سلامة من الإعلان: «التهويل»، و«الضغط لإصدار قانون...». هذا التوصيف يرتكز إلى معطيات سابقة وموقف معلن من الصحيفة: الحاكم يكذب، لديه «موبقات»، أي أعمال سيّئة سابقة، ويحاول التغطية عليها.

يتبيّن من خلال نماذج المانشيت (عناوين وأخبار) أنّ الصحافة المكتوبة اللبنانية تعتمد أسلوب التشويق في تقديم المعلومات، ولكنها تَعد المتلقّي وتقدّم له قراءة إخبارية ومعلومات إضافية تتميّز بالشموليّة، وموقفًا واضحًا حيال القضايا المطروحة؛ أي لا تكون الصحيفة، أيًّا تكن ميولها وأهواؤها، «محايدة» بالمعنى السلبي للمصطلح. بل هناك التزام معلن تتولّى التعبير عنه، لتكون جزءًا من الصورة التعددية التي تطبع الفضاء التواصلي.

ب – الخبر مع الأبعاد

تعمد الصحافة المكتوبة، في إطار مقاربتها للرسالة الإعلامية، إلى إعطاء أبعاد للخبر، فهذا يعطيه قيمة مضافة. ويطال هذا الأسلوب الأخبار المؤثّرة والأساسية، من خلال عرض حيثيّاتها، وظروفها، وخلفيّاتها، والتداعيات، والأسباب. إنّ إعطاء الخبر أبعاد تُعيد "تنشيطه" بعد أن كانت المتابعات المباشرة، منذ حصول الحدث، قد أشبعته تغطية.

ويمكن إدخال الأبعاد بأشكال متعدّدة: تذكير بأساس القضيّة أو المسألة المطروحة، مقابلة مع الجهة المعنيّة أو على معرفة بالمسألة أو مؤثّرة، ربط الأحداث، استعادة معطيات سابقة وتركها تتفاعل مع المعطى الجديد، محاولة إجراء مواكبة ميدانية تتيح رفد الحدث (الميداني) بمادّة خبريّة.

نموذج خبر مع أبعاد

قال رئيس مجلس الوزراء في تصريح عن قضية رواتب حاكم مصرف لبنان ونوابه: «هناك مسألة غير عادلة وطنيًا. كيف يمكن أن نقبل بوجود مواقع برواتب مرتفعة وخياليّة أحيانًا، بينما البلد يمرّ بأزمة ماليّة كبيرة، وأزمة اجتماعيّة خطيرة؟ هناك مسؤوليّة وطنيّة تحتّم علينا أخذ هذا الموضوع بالاعتبار. لذلك، الأجدى بنا أن نقدم مشروع قانون لتخفيض رواتب هذه المواقع وكل المناصب الأخرى ذات الرواتب المرتفعة».

الأبعاد المطلوبة / لا يمكن الاكتفاء بما صرّح به رئيس الوزراء. فالخبر يتطلّب توضيحات:

أوّلًا، كم يتقاضى الحاكم ونوابه وكلّ المناصب الأخرى ذات الرواتب المرتفعة. مطلوب أرقام.

ثانيًا، مقابلات إذا أمكن مع رئيس الوزراء باعتباره صاحب المشروع عن مشروعه البديل.

ثالثًا، مع الحاكم مثلًا لسماع وجهة نظره.

رابعًا، مع خبير مالي واقتصادي عن قضية الرواتب العالية وتأثيراتها على الماليّة العامّة واقتصاد البلد.

خامسًا، قد يبادر المحرّر المالي في المؤسّسة الإعلامية إلى إجراء تحقيق أو قراءة للقضيّة.

كان الصحافي مجرّد ناقل للخبر، أمّا في الأسلوب الحالي، فقد بات متفاعلًا مع الحدث. لا يكتفي فقط بنقل الوقائع والمعطيات، بل يذهب إلى إعطاء أبعاد من خلال البحث عن الخلفيات والوقائع والظروف والأرقام والتداعيات.

ج – المقال

المقال في الصحافة المكتوبة يُعدّ من مصادر تميّزها في منظومة الاتصال الجماهيري. إذ إنّها «تحتكر» إلى حدّ بعيد، هذا «الامتياز»، قياسًا إلى الوظيفة الخبريّة أو الترفيهيّة الطاغية في بقيّة الميديا. والمقال نصّ يتضمّن آراء الكاتب حيال قضيّة أو حدث آنيّ أو مسألة لديها صدى. وتنطلق من إشكالية واضحة تتحدّد من خلالها فكرة الموضوع وزاوية مقاربتها، مع تصوّر واضح لبنيانها الفكري و/ أو السياسي. وهناك في الصحافة أنواع متعددة: الافتتاحية، الزاوية، التعليق. وتتناول أي جانب: اقتصاد، سياسة، مجتمع، رياضة... وعلى المقال أن يأخذ موقفًا. لا يمكنه أن يدّعي الحياد، أو الموضوعيّة بمفهومها «اللبق». إذ إنّنا أمام قضية، مطلوب حيالها وجهة نظر واضحة ورأي معلن.

مثلًا، [«الإصلاح الحقيقي يبدأ عند توافر الإرادة وصدق النيّات...»]. في المقابل، [«مشكلة الفساد ليست في الممارسات فحسب، بل هي مشكلة نظام...»]. في هذين النموذجين، تبدو مقاربة الأزمة السياسيّة وكيفيّة الحلّ على طرفيْ نقيض: تكفي «الإرادة وصدق النيات» للإصلاح، في النموذج الأول، فيما يذهب المنطق المضاد إلى أنّ الفساد سببه «مشكلة النظام»، بما يعنيه ذلك من دعوة إلى التغيير الجذري. وهناك طبعًا مقالات لديها مقاربة أقلّ تطرّفًا.

وتتعدّد المقاربات تبعًا للخلفية الفكرية والسياسية للكاتب؛ فهناك من يتبنّى المنطق العقلي والبرهان المستند إلى معطيات وأرقام. وفي المقلب الآخر، قد يتمّ الارتكاز إلى نظام القيم والمفاهيم. وهناك الأساس الديني أو

الهوية القومية (والوطنية)، والمصالح الاقتصادية. وفي كلّ هذه المنطلقات، تُفترض العودة إلى الوقائع والتطوّرات. في هذه الحال، تكون لغة المقال على تماس مع الواقع المعاش، وتنهل من المستويات الثقافيّة والاجتماعيّة المتنوّعة.

هدف المقال أساسًا، الدفاع عن فكرة أو قضيّة بأسلوب ترويجي. والمعيار الأهمّ أن يتّسم المقال بالتحليل المعمّق والذكي، وأن يقدّم معلومات إضافيّة أو جديدة (عمّا هو متداول)، وأن يضيف إلى الحدث تفسيرًا وتحليلًا علميًّا.

الخاتمة

تستمدّ وسائل الإعلام أهمّيتها انطلاقًا من دورها في المجتمعات؛ إذ تساهم في تشكيل الرأي العام وفي التأثير على مواقفه وآرائه واتجاهاته، بل وفي صقل مجموع القيم والسلوك الاجتماعي للفرد والجماعات. ويتّسع ميدان التأثير ليشمل النظام الاجتماعي بأبعاده الأخلاقية والمسلكية والتنمية الفكرية والعلمية والثقافية عمومًا، بل خصوصًا مساهمتها في تناول ومناقشة المشكلات الحيويّة في المجتمع، بعناوينها السياسيّة والوطنيّة والاقتصاديّة.

ولا تزال هذه الوظيفة الشموليّة تطبع الصحافة اللبنانية، وتعطيها فرادتها (قياسًا إلى بقية وسائل الإعلام التقنيّة)، فتصبح صلة وصل وتفاعل بين المجتمع والسلطة، ومساحة حوار و«رسائل» متبادلة بين المجموعات والأطراف المتعدّدة والمتنوّعة. وهذا امتداد لتراث وتقليد و«تعددية» راسخة وبنيويّة. ودخل العامل التقني كعنصر إضافي في تحدّي الاستمرارية. إذ «كانت الصحف والدوريات المطبوعة أول من سارع إلى إطلاق مواقعها» و«إلى نقل المحتوى الورقي كما هو إلى الشبكة» الإلكترونية. (خليل، ٢٠١٩، ص ٢٠٦)

ما تقدّم لا يلغي حقيقة أنّ الصحافة المكتوبة، كما هو حال الميديا التقليديّة عمومًا، تواجه صعوبات كبيرة مع التنامي المضطرد للمنظومة الجديدة والتغيير الحاصل في هذه العلاقة المتشابكة بين عناصر العمليّة التواصليّة، أي المرسل والمتلقّي والرسالة والوسيلة. بل إنّ التغيير يبدو متعدّد الأبعاد: تقنيًا، في ما يخصّ الوسيلة. وظيفيًّا، في ما يتعلّق بالمرسل (أي الصحافي). المضمون، أي الرسالة. وتفاعليًّا بالنسبة إلى المتلقّي الذي لم يعد حضوره

سلبيًا في معادلة التواصل، كما كان الحال سابقًا، بل أصبح شريكًا فاعلًا وناشطًا في صناعة الرسالة الإعلاميّة، تصويبها، نقضها، تقديم إضافات أو التعليق عليها، فيما يكون في أحيان كثيرة المصدر الحصري للخبر. «إنّ ما يميّز النموذج التواصلي الجديد الذي تفرزه التكنولوجيات الحديثة للمعلومات والاتصال، وبخاصة الإنترنت، لا يتعلق فقط بما يسمى "الكثرة المعلوماتية"، ولكن ايضًا بتعميم القدرة على الكلام على الافرد. ويسهم هذا النموذج في تشكيل فضاء عمومي أكثر انفتاحًا. إذ لم يعد التواصل العمومي يقتصر على النخب السياسية والثقافية وعلى المؤسسات (أحزاب، جمعيات...)» (الحمّامي، ٢٠١٣، ص ١٠٧).

وهكذا، في ظل تشابك عناصر التواصل، والالتزام الثابت بشروط منظومة القيم والمفاهيم، فإنّ الصحافة المكتوبة تمتلك أوراق قوة تجعلها متجذّرة في الفضاء العام/ المكان، وتخاطب خصوصًا، «الإنسان المتوسّط»، بالمعنى الوظيفي. أي أنّ شريحة القرّاء المترسّخة، وإن كانت تشهد تراجعًا مضطردًا في أعدادها، إلا أنّها تستمدّ حيويّة ودورًا من أنها فاعلة ضمن شبكات ودوائر الانتماءات، مسبغة عليها قوّة ورصيدًا فكريًا، يبدو ضروريًّا إبّان احتدام الصراعات (السياسيّة والايديولوجيّة..)، ومخزونًا من الحجج والذرائع الضروريّة.

وفي لبنان، الساحة الصاخبة والمتناحرة نتيجة الأزمات المتعدّدة الأوجه، والمرتبطة سياسيًّا وأيديولوجيًا (ومصلحيًّا) بمراكز نفوذ محلية وبقوى خارجية، هناك إقرار بأهمّية الصحافة المكتوبة وضرورة استمرارها، في سياق الحرب الإعلاميّة المستعرة، وذلك لدورها المستمر في التأثير على النّخب والناشطين من مختلف الاتجاهات. إذ كما أظهرت هذه الدراسة، فإنّ مضامين الصحف المكتوبة، المتميّزة إجمالًا بالتحليل والقراءة الإخبارية وارتباطها البنيويّ بالمجتمع ومكوّناته، تجعلها مصدرًا أساسيًّا ومهمًّا للمعلومة والفكرة ولصناعة الرأي، لم تتمكّن أي وسيلة إعلامية أخرى (تقليدية أو حديثة) من مجاراته لأسباب بنيويّة وعملية.

هذه المعطيات تؤشّر إلى الواقع الجديد الذي دخلت فيه الصحافة المكتوبة والتحديّات الماثلة أمامها، بل لا يمكن تجاهل أنّ الصحافة الورقية أمامها تحدّيات. ولربما في المستقبل غير البعيد، قد تصبح من الماضي. قد تقفل وتنتهي، كما يحصل مع نسبة كبيرة من الصحف والمجلات. إنّما، وبالشروط الحالية، لا يبدو أنّ الصحافة الورقية إلى متحف التاريخ، بل إنّ برنارد بوليه وفي نهاية قراءته (كتابه) عن «نهاية الصحف ومستقبل الإعلام»،

يخلص إلى بثّ جرعة تفاؤل: «مهما يكن مستقبل وسائل الإعلام التقليدية والتطوّرات الجديدة منها، فثمة شيء أكيد هو أنّ المجتمعات لا يمكنها الاستغناء عن المعلومات الإخبارية. فلا المواطن ولا المسؤول السياسي أو الاقتصادي أو المالي، يمكنهم التصرّف أو اتخاذ قرار من دون أن تكون لديهم معلومات جيّدة. والدولة الديمقراطية هي دولة "معارف". وقد تطوّرت الديمقراطية الحديثة بفضل قدرتها على معرفة كيفية سير المجتمع. وكانت الصحافة محرّكًا فاعلًا في ذلك. ومن هنا يمكن الرهان على انها لن تختفي» (بوليه، ٢٠١١، ص ٢١٠).

ويمكن للصحافة المكتوبة (وليس بالضرورة الورقية)، أن تضمن استمرارية منشودة إذا ما نجحت في تثبيت دورها الوظيفي المتقدّم، والمتمثّل تحديدًا في نقل المعرفة إلى الأفراد، على ان تبقى الوظائف المكمّلة، مثل: الأخبار، المعلومات، الترفيه، وحتى التثقيف، لبقية وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي. إن تحليل (أو قراءة) المعلومات الخبريّة يرتكز على المعرفة والقدرة على الربط بين مجموعة معطيات آنيّة وقديمة، نظرية وظرفية، مبدئيّة وسياسية، ما يتيح بناء المعنى والتأثير في عمليات الإدراك والوعي والتفاعل لدى المتلقّي في بحثه عن الخلفيات والأبعاد. إنّ الوظيفة المركزيّة للرسالة الإعلامية المطلوبة من المؤسسات الصحافية، هي القدرة على أن تستنبط المعنى، وأن تكتشف وتتفاعل مع المعطيات، ما يتيح الخروج بأفكار جديدة وقراءة تفاعلية، وتحليل الظاهرة (او الحدث) وتفسيرها. والمؤكّد أنّ الصحافة المكتوبة هي المخوّلة بنيويًّا أن تتولّى هذه المهمّة.

المصادر والمراجع العربية

- بشير، عماد (٢٠٢١). "توافر الصحف اليومية الورقية على إنترنت: العرب يخسرون المطبوع ولا يربحون الرقمي"، **مجلة لباب (٥)**. الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات.
- بوليه، برنارد (٢٠١١). **نهاية الصحف ومستقبل الإعلام**، ترجمة خالد طه الخالد. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- جابر، راغب (٢٠١٩). "الصحافة اللبنانية أمام تحدّي التغيير في مواجهة الاعلام الجديد ووسائله: صحيفة الأخبار نموذجًا"، في "تحوّلات في ممارسة المهنة الإعلامية في لبنان"، **مجلة الاتصال والمعلومات** (٤). بيروت: مركز الأبحاث في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية.
- الحسن، حسن (١٩٨٦). **الدولة الحديث: إعلام واستعلام**. بيروت: دار العلم للملايين.
- حسين، أحمد (٢٠١٧). "إستراتيجيّات الإدارة الصحفية في التصدّي للتحديّات التي تواجه الصحافة المطبوعة: دراسة ميدانيّة على مديري المؤسسات الصحفية المصرية"، **مجلة البحوث الإعلامية** (٤٧ / ٤٦).
- الحمّامي، الصادق (٢٠١٣). "المجال الإعلامي العربي: إرهاصات نموذج تواصلي جديد"، في: **الإعلام وتشكيل الرأي العام صناعة القيم**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- خليل، زينب (٢٠١٩). "الصحافة الإلكترونية في لبنان: النشأة والتحديّات"، في "تحوّلات في ممارسة المهنة الإعلامية في لبنان"، **مجلة الاتصال والمعلومات** (٤). بيروت: مركز الأبحاث في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية.
- الراجي، محمد (٢٠٢٠). "أزمة الصحافة الورقية في لبنان: أطروحة النهاية وإشكالية الاستمرارية"، **مجلة لباب (٥)**. الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات.
- سلمان، طلال (٢٠١٧). "الصحافة في عالم متغيّر: أزمة مصير"، في: **الإعلام العربي ورهانات التغيير في ظل التحوّلات**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- صقر، صقر يوسف (إعداد وتقديم) (٢٠١٠). **قصة الصحافة في لبنان**. بيروت: المركز العربي للمعلومات.
- القادري، نهوند (٢٠١٧). "كوابح التغيير الكامنة في بنية المنظومة الإعلامية والاتصالية الراهنة"، في "الإعلام العربي ورهانات التغيير في ظلّ التحوّلات"، أعمال المؤتمر الذي نظّمته كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ماتلار، أرمان وميشال (٢٠٠٥). **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة.

- مراد، غسان (٢٠١٩). **دهاء شبكات التواصل الاجتماعي وخبايا الذكاء الاصطناعي**. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

- موران، سوفي (٢٠٠٩). **ملاحظة وتحليل وفهم خطاب الصحافة اليوميّة**، ترجمة عبد المجيد جحفة. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- نون، جمال ورامي نجم (٢٠١٩). التحوّلات الطارئة على عمل الإذاعات اللبنانية في عصر الإعلام التفاعلي، في "تحوّلات في ممارسة المهنة الاعلامية في لبنان"، **مجلة الاتصال والمعلومات** (٤). بيروت: مركز الأبحاث في كلية الاعلام في الجامعة اللبنانية.

- ويمر، روجر، وجوزف دومينيك (٢٠١٣). **مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي**، ترجمة صالح أبو أصبع وفاروق منصور. بيروت: دراسات الوحدة العربية.

- شيللر، هربرت (آذار – ١٩٩٩). **المتلاعبون بالعقول**، ترجمة عبد السلام رضوان، **سلسلة عالم المعرفة** (٢٤٣). الكويت.

المراجع الأجنبية

- Baillargeon, N. (2014). *Mutations de l'univers médiatique: Médias traditionnels et nouveaux.* Québec: éd. Égaphone.

- Cayrol, R. (1991). *Les médias: Presse écrite, radio, télévision*. Paris: PUF.

- Keen, A. (2008*). Le Culte de l'amateur, Comment Internet tue notre culture*. Paris: Scali.

- Wolton, D. (2009). *Informer n'est pas communiquer*, (CNBS Éditions). Paris.